بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 22 فبراير 2021

ظاهرة التعصب:
جدلية القبول والرفض؛ مقاربة سوسيولوجية

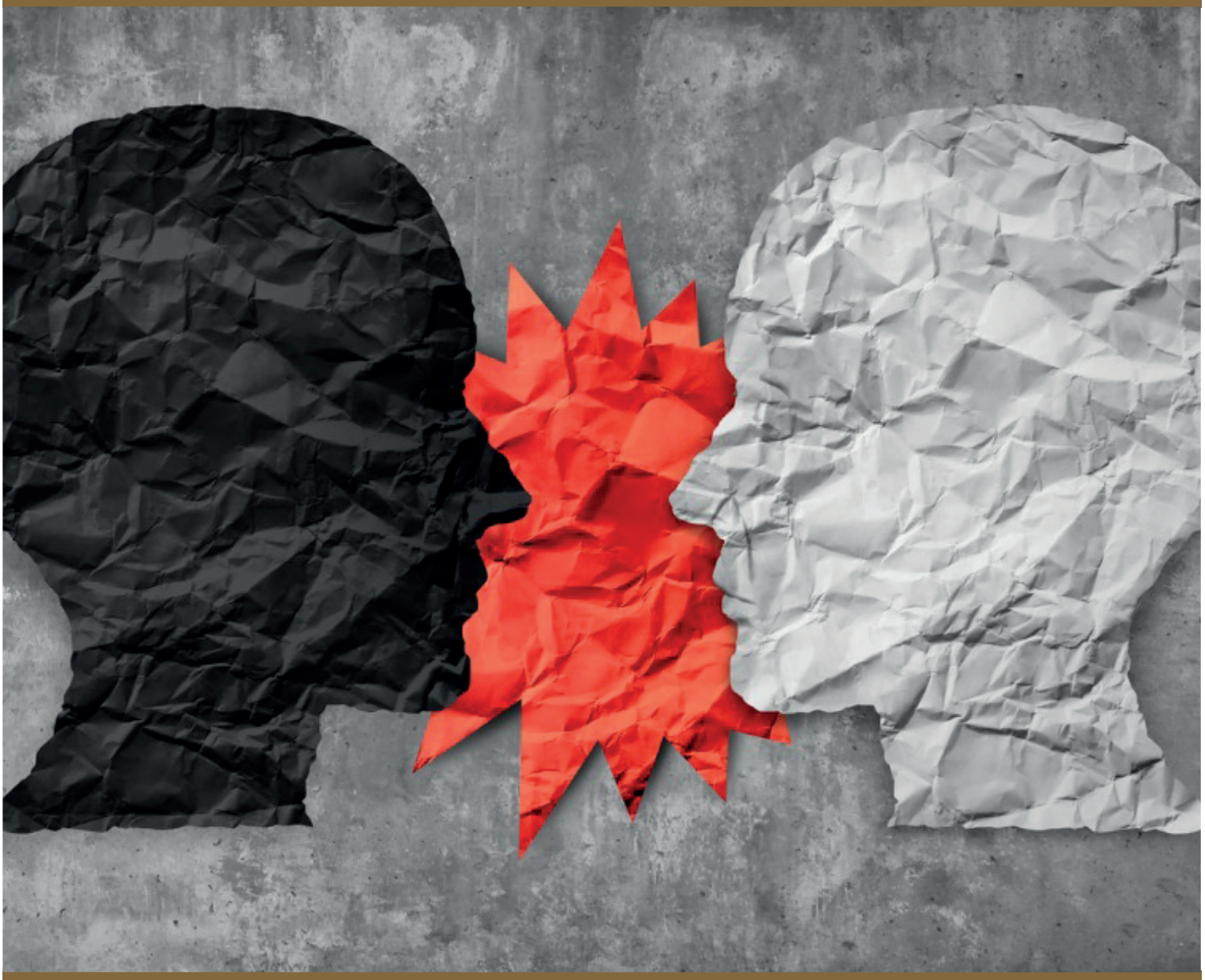

منير برقاد
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

ملخص البحث:

تشهد المجتمعات البشرية استفحال ظاهرة التعصب وما تفرزه من أشكال من التدمير والرفض والإقصاء والتمييز والعنف، ونيل الاعتراف من الآخر بالقوة. إن التساؤل السوسيولوجي عن هذه الظاهرة يشكل أهمية علمية لفهم عواملها وتجلياتها وسبل مواجهتها. وتسعى هذه المقاربة البحثية إلى فهم ووصف تجليات نشوء هذه الظاهرة في المجتمع بالاستناد إلى بعض الدراسات والأبحاث في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي. والوقوف على تحليل البنيات الذهنية والخصائص التي تميز الفرد المتعصب ومواقفه، يلي ذلك إبراز أوجه التقاطع بين ظاهرة التعصب، وفعل التمييز والصور النمطية التي يبلورها الأفراد حول أفراد آخرين، جماعات، دين، ثقافة أخرى.

إن دراسة ظاهرة التعصب تتطلب القيام باستعمال تركيبي للمناهج، إذ يمكن مقاربة هذه الظاهرة من عدة زوايا وحقول معرفية مختلفة تلتقي في نقاط محددة، وبالخصوص في فهم أسباب وأشكال ومظاهر التعصب.

لقد اعتمدت هذه الدراسة المنهج الوصفي المتمثل في فهم واستقراء سلوك الأشخاص المتعصبين، وفهم المعاني والدلالات التي تقبع وراء سلوكياتهم وتوجهاتهم، انطلاقا من سرديات بحثية كبرى ونتائج بعض الدراسات الميدانية المهمة.

تقـــديـــم

تعتبر ظاهرة "التعصب" من الظواهر الاجتماعية التي يتوجس الباحثون البحث والكشف عنها في شعاب المجتمع وبنياته. لذلك، فإن التعصب يعد ممارسة بشرية قائمة بذاتها، من حيث إنها تفرض تحديات عديدة تؤثر على البناء الاجتماعي؛ ففعل التعصب، هو ذو حساسية وتأثير عويص ينتشر في الكثير من المجتمعات، ويتسرب إلى عمق الحياة النفسية والاجتماعية، ويؤثر على نحو أعمق على الذات ويوقعها في متاهات منغلقة يصعب التخلص منها، كما أنه يعيق من عملية التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات.

لقد حاولت السوسيولوجيا كعلم يدرس الظواهر كمشكلات اجتماعية، معالجة ومقاربة هذه الظاهرة المستعصية من زاوية التركيز على الفرد وممارسته، ومن زاوية أخرى التركيز على الجماعة وتأثيراتها على الفرد. واعتمدت هذه الدراسة على التأويل.

ومن هنا، تفترض هذه المقاربة البحثية وجود موقف القبول لدى الشخص المتعصب، من حيث إنه يقبل أفكاره ويتشبث بها ويدافع عنها بالقوة، كما يمكن الافتراض أيضا أن المتعصب يحمل منطق الرفض؛ أي استبعاد الآخر وإقصائه وعدم الاعتراف بوجوده المختلف.

ومن أجل محاولة التأكد من هذه الفرضيات، وفي سبيل مواكبة التراكم المعرفي السوسيولوجي لدراسة هذه الظاهرة، فإنه يمكن طرح بعض الإشكاليات المركزية؛ في مقدمتها: كيف تبرز ظاهرة التعصب في المجتمع؟ ما هي مظاهر الفرد المتعصب وصوره؟ كيف يتداخل فعل التعصب مع التمييز والعنف والصور النمطية؟

أولا - في مفهوم التعصب

إذا ما تم الانطلاق من التحديد اللغوي للمفهوم، استنادا إلى مجموعة من المعاجم اللغوية، فإن أصل التعصب Fanaticism - Fanatisme يشتق من فعل عصب، تعصبا، ويقال تعصب في دينه ومبدأه، بمعنى كان شديدا غيورا فيه ومدافعا عنه (له أو معه)، ويقال: "تعصبا عليه" بمعنى وقف بعده، وهنا قد يتحدد ويتجلى المعنى "السلبي" الذي يتسم به مفهوم التعصب. أما "ابن منظور" في معجم لسان العرب، فيربط مفهوم التعصب بكلمة "العصبية"، ومعناها أن يفكر الرجل بنظرة عصبية والتشبث بها وأن يدافع عن انتمائه لإخوته، سواء كانوا ظالمين أو مظلومين. فالفرد المتعصب يتصف بهذا المعنى، بالعداء والتشدد والتحدي، ويكون في حالة حب مبالغ فيه للذات، مع تشبث بأفكار وأحكام وصور محددة لا تحمل وجه

الوضوح واليقين، فهو يؤمن بالفكرة الأحادية ويشرع في إظهارها وبثها، ومن هنا يبرز منطق القبول الذاتي لدى الفرد المتعصب، إذ إنه يتشبث بمعتقداته وأفكاره على نحو دوغمائي، ويقبلها كمبدأ ذاتي انطلاقا من فرديته المتعالية.

في معجم العلوم الاجتماعية، يورد أحمد زكي بدوي أن التعصب هو: "غلو في التعلق بشخص أو فرد أو مبدأ أو عقيدة، حيث لا يدع مكانا للتسامح، وقد يؤدي إلى العنف والاستماتة"[1]؛ بمعنى أن التعصب يجعل الفرد المتصف به يؤمن بمبدأ واحد وثابت، ويجعله بمثابة الحقيقة عنده، فبالتالي يصعب تفسير أفكاره لكونه يصبح بنية تفكير مغلقة لا تقبل التغيير أو التجدد. فالفرد المتعصب في الغالب ما يلجأ إلى تبني خطاب أحادي أثناء تواصله، وإبداء مواقفه بخصوص موضوعات ما، بطريقة جامدة ومغلقة دون الرضا بما يقوله الآخرين من أفكار واتجاهات مختلفة مع اتجاهاته الذهنية.

ثانيا - نحو تحليل اجتماعي للتعصب

إن التعصب من الظواهر الأكثر شيوعا في المجتمعات، ولعل الوقوف على الدراسات السوسيولوجية والسيكولوجية التي قام بها العديد من الباحثين، كالباحثة "حنا أرندت"، "بيير بورديو" "سيغموند فرويد"، "جوليا كريستيفا"... تشرح بوضوح أن التعصب يحمل نقيضا ضد التسامح والحرية، وإذا ما تسرب إلى داخل بنيات المجتمع، فإنه قد يؤدي إلى بث الكراهية والعنف والصراع، وهذا ما يتجلى عبر أشكاله وأنماطه، كالتعصب العرقي والتعصب الثقافي والتعصب الديني والتعصب الطائفي، لكن هذه الأنماط والتجليات تصب في فكرة مفادها أن التعصب له جوهر واحد، وهو "الانقياد العاطفي لأفكار وتصورات تتعارض مع الحقيقة الموضوعية."[2] فلا مجال لخلق التفاهم والحوار، مادام أن هنالك ذهنية منغلقة تؤثر على رؤية الفرد المتعصب للعالم. فالتعصب يصبح حماسة عمياء لعقيدة ورأي أو مشاعر نحو شيء ما بتعبير الباحث أحمد زايد، حيث إن العماء لا يترك مجالا لرؤية الحقيقة والإيمان؛ لأن الشخص المتعصب يعيش في حالة خاصة من التصلب الفكري والجمود العقائدي، فعوض أن يتشكل الرأي العقلاني المبني على الوضوح والحقيقة، يتدخل الرأي الهش القاصر المبني على التسرع في الحكم والتشبث بالمبدأ الأحادي، وهذا ما يؤدي إلى اضطرب عملية التواصل وانحلال التوافق الاجتماعي، مما يؤدي بالفرد المتعصب إلى إعلان آلية الرفض وممارسته بالقوة الرمزية وأحيانا حتى القوة الفيزيائية دون تعقل.

1- أحمد زكي (بدوي (، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، بيروت، مكتبة لبنان، 1978 ص 154

2- علي الأسعد (وطفة(وعبد الرحمان) الأحمد(**التعصب ماهية وانتشارا في الوطن العربي**، مجلة عالم الفكر، المجلد30، 3 يناير - مارس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، 2002، ص 83

إن مفهوم التعصب وبالعودة إلى الكتابات التاريخية السالفة، قد مر بثلاث محطات رئيسة: "المعنى القديم، حيث كان ينظر إلى التعصب على أنه حكم مسبق قائم على أساس القرارات والخبرات الفعلية، ثم اكتسب المفهوم في اللغة الإنجليزية معنى الحكم الذي يصدر عن موضوع معين للقيام باختيار وفحص الحقائق المتاحة عن هذا الموضوع، فهو رمز لحكم متعجل. وأخيرا اكتسب المفهوم الصبغة الوجدانية التي تتسم بالتفضيل أو عدم التفضيل، هذه الصبغة الوجدانية تكون مصاحبة للحكم المسبق الذي ليس له سند يدعمه"[3]، حيث إن هذه الصبغة الوجدانية المبنية على التفضيل هي التي أصبحت سائدة باستمرار في الخطابات السوسيونفسية والسيكولوجية على وجه الخصوص، نجد أن الباحثين دافيد ميرز وبارون وبيرن، أبرزا بعض التصورات بخصوص فعل التعصب، على أنه "اتجاه سلبي غير منطقي تجاه جماعة وتجاه أعضاء هذه الجماعة، إضافة إلى ذلك أنه حكم مسبق يجعلنا ننحاز ضد فرد"[4]، ينتمي لجماعة معينة، حيث إن هذا الفعل يقترن بمفهوم التفضيل؛ أي إن الفرد المتعصب قد يفضل جماعة على أخرى، ويسرع ببث أفكار ومعتقدات جماعته على أنها أمر يجب أن يطاع، وهذا ما سميناه بنزعة القبول لدى المتعصب، إذ يشير الباحث أمارتيا صن بهذا الصدد، في كتابه "الهوية والعنف"، حينما وقف على أشكال التعصب الديني والعرقي بين المسلمين والهندوس في أربعينيات القرن الماضي، ليكتشف أن التعصب هو "ما يشطب بجرة قلم الأهمية البالغة التأثير لتآلفاتنا ومشاركتنا المتنوعة والشعبية..."[5] فالتعصب هو تمسك باتجاهات تتسم بالازدراء، وأن التعصب هو في عمقه حكم سلبي، غير عادل وخاطئ تجاه أعضاء جماعة معينة.

وفي سياق آخر، نورد ما قدمه سابقا، الباحث الفرنسي "رينيه باكمان" في كتابه "الجدار في فلسطين" (Awallin palestine) في سنة 2007، يعطي مثالا للتعصب الإيديولوجي، انطلاقا من قرار بناء الجدار الذي يفصل فلسطين عن إسرائيل، ليبرز أن عملية الفصل زادت من تأجيج حدة الصراع بين الحكومتين. ويعرف باكمان التعصب في هذا الصدد هو "اتجاه أو موقف غير مبرر يكون في المرء مستعدا أو مهيّأ لأن يعتقد ويدرك ويتصرف بطريقة مؤيدة أو مناهضة لجماعة معينة من الناس أو لفرد منها."[6] بمعنى أن التعصب ينطلق في أعم أحواله من تصورات مسبقة متسرعة على شكل مبدأ ونموذج يصنف فيه الناس إلى فئات اجتماعية دينية وعرقية تنتسب إليها مجموعة من الصفات والخصائص العامة التي تنسب إلى جميع أفراد الجماعة.

3- أحمد(زايد)، **سيكولوجية العلاقات بين الجماعات**، الكويت، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 326، 2006، ص 65

4- نفسه، ص 66

5- أمارتيا (صن)، **الهوية والعنف**، الكويت، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 2008، ص 176

6- عبد الحافظ (سلامة)، **علم النفس الاجتماعي**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2007. ص 82

وفي السياق ذاته، نجد تعريف كل من كرتس وسرتشفيلد على خط متشابه مع التعاريف الأخرى، حيث يعتبرا التعصب هو تلك "المعتقدات والاتجاهات المتعلقة ببعض المساوئ التي يوجهها فرد أو جماعة ضد أقلية عنصرية أو قومية."[7] هنا يتمظهر الاتجاه السلبي للتعصب في كثير من التحديدات، لكنه بالرغم من ذلك، يضم اتجاها إيجابيا يتمثل في اعتقاد المرء أن الفئة التي ينتمي إليها، سواء كانت قبيلة أو وطنا أو مذهبا فكريا أو دينيا، هي أسمى وأرفع من بقية الفئات. فبالتالي يتشكل مبدأ التفضيل وتبرز نزعة القبول، لكن من ناحية أخرى، يتم رفض وإقصاء الجماعات والفئات الأخرى؛ لأنها مخالفة للتوجه الفكري الذي يرسخه الفرد المتعصب في بنية تفكيره.

لقد حظيت ظاهرة التعصب بأهمية تحليلية واسعة في المتن السوسيولوجي، وبهذا الصدد نجد الباحث السوسيولوجي الفرنسي جيرالد برونير Gérald Bronner يتساءل عن مدى اعتبار فعل التعصب كممارسة لا عقلانية، "فهل ما يسمى بالتعصب هو بالضرورة لا عقلانية حاضرة؟"[8] وهذا ما جعله يعتبر التعصب كاعتقاد قيمي متطرف يناقض الفعل العقلاني، "إذ إن الفرد المتعصب في الواقع، هو الذي يرتبط منطقه على نحو غير مشروط بالعديد من القيم في نفس الآن، مما ينتج عن ذلك بروز سلوكيات معادية للمجتمع."[9] فمعظم الاعتقادات الأكسيولوجية التي يتبناها الفرد المتعصب تكتسي في الغالب حمولة فكرية ثابتة ومغلقة وغير متناسقة نسبيا، وهو الأمر الذي يجعل من المتعصب بؤرة للسلوكيات العنيفة رمزيا، إلى حد الوصول إلى درجة رفض وإقصاء الآخر بالقوة؛ لأنه مختلف دينيا أو عرقيا أو ثقافيا أو سياسيا.

إن تحليل سلوك الفرد المتعصب يمكن مقاربته من زاوية فردية خالصة، حيث إن التعصب هو نتاج لفعل ذاتي ينبع من قناعات الفرد ونظرته للعالم، وبهذا الصدد، يمكن استحضار التمييز الشهير الذي وضعه السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر حول أخلاق الاقتناع l'éthique de conviction وأخلاق المسؤولية l'éthique de responsabilité، فميول الفرد نحو تبني موقف التعصب قد يكون نتاجا لقناعة راسخة يستلهمها الفاعل من محيطه الخارجي، وقد يقرر القيام بفعل تعصبي محدد، إلا أنه يربط مسبباته ونتائجه بالعالم المحيط وبحماقة البشر وبالقدرية، حيث إن الفاعل لا يقحم ذاته في نتائج هذا الفعل، إذ يحمي شعلة معتقداته النقية، ليتهم العالم الخارجي بكونه المسؤول عن نتائج فعله. إن ماكس فيبر يبرز أن الأفعال، ينبغي أن تكون خالصة من داخل الذات مع تحمل مسؤولية كل النتائج، وبذلك يقول: "نحن المسؤولون عن النتائج

7- نفسه، ص 82

8- B. Géral, **Fanatisme, Croyances axiologiques extrêmeset rationalité**, L'année Sociologique, 2001/1(vol 51). P. 138. DOI 10.3917/anso.011.0137

9- la même référence, P 150

والعواقب المترتبة عن أفعالنا وأعمالنا."[10] وهذا ما يفسر بكل وضوح أن التعصب يكون قرارا فرديا، إلا أن الفاعل يمنحه معنى خارجيا، دون إسناد الذات المسؤولية الأولية للفعل. وهذا ما يمكن ملاحظته وملامسته عبر العديد من الحوادث والوقائع التي حصلت في بعض المجتمعات التي تعكس بشكل أدق هذا المعنى، وهو تشبث الفرد بقناعات راسخة وإصراره على بثها والدفاع عنها، وإقحامها في حياته بأشكال مختلفة، منها ما قد يؤدي إلى نشوء ظواهر أخرى كالعنف والعنصرية مثلا.

ومن التحديدات المهمة التي قاربت ظاهرة التعصب، هي ما قدمه حامد زهران وجون دكيت، حيث إن التعصب يصبح اتجاها نفسيا جامدا ومشحونا انفعاليا أو عقيدة أو حكما مسبقا مع أو (في الأغلب والأعم) ضد جماعة أو شيء أو موضوع، ولا يقوم على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية، بينما يتحدد عند جون دكيت، أنه اتجاه (تقبل / رفض، ثقة/ عدم الثقة، حب / كره) وموضوع يتميز بالنمطية والانفعالية، وبالظلم وعدم التسامح، ويصاحبه أفكار جامدة وصعبة التغيير نسبيا، وقد تصور جون ديكيت التعصب على أنه خليط من التمركز العرقي، والقوالب الجامدة والمسافة الاجتماعية والعنصرية والتمييز، فما معنى التعصب والتمييز من خلال هذه الحالة؟

ثالثا - التعصب والتمييز كعلاقة مؤثرة

أكدت العديد من الدراسات في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على وجود علاقة وثيقة بين التعصب والتمييز، باعتبار أن التعصب يشكل اتجاها، وأن التمييز يشكل سلوكا ناتجا عن هذا الاتجاه، حيث يصبح التمييز تعبيرا وسلوكا ظاهريا يعبر عنه الفرد المتعصب، وهذا ما تجلى جليا في البحث الميداني في المجال السياحي، الذي أنجزه ريتشارد لابيير، والذي كان موضوعه حول معاملة مديري الفنادق للنزلاء من أصل صيني، حيث وجد أن مديري الفنادق يرفضون استضافة النزلاء الصينيين؛ وذلك إذا ما حاولوا التحدث إليهم تلفونيا، بينما لا يترددون في استضافتهم إذا ظهروا لهم شخصيا في الفندق. وما وصلت إليه هذه الدراسة هو وجود ارتباط بين التعصب والتمييز، وفي دراسة أخرى قام بها بوجاروس، تناولت ظاهرة التعصب والتمييز والعلاقات بين الشعوب، حيث قام الباحث بتطبيق مقياسه التعصبي المشهور على عينة كبيرة بلغت 1725 من الأمريكيين، وبينت النتائج ما يلي:

10- M. Weber, **Le Savant et Le Politique**, Paris, Plon, 1990. P 172-173

	الإنجليز	الألمان	يهود	زنوج
أتزوج منهم	94	54	8	1
أصادقهم	97	67	22	9
أسكن معهم	97	79	26	12
أقبلهم	96	87	54	57

ومن الطريف أن الباحث نفسه أعاد تطبيق هذا المقياس بعد عشرين عاما في عام 1950، ولم يجد أي تغيير في اتجاهات الأمريكيين نحو الشعوب، وهذا ما يوضح بين التمييز الذي يظل قريب الشبه من مفهوم التعصب؛ فالفرد المتعصب يقوم بفعل اختياري بصورة معينة؛ ذلك أنه يميل إلى جماعته ويميز الآخرين، فهو عبارة عن سلوك «ينشأ من الاتجاه التعصبي».[11]

تطرح مسألة التمييز العنصري أهمية كبرى في سياق العلاقات الدولية، وما تعيشه المجتمعات من أوضاع سياسية واجتماعية مضطربة على مستوى التنوع العرقي والديني؛ إذ تسود ظواهر التمييز العنصري والتعصب بين أفراد المجتمع الواحد؛ ذلك أن «المسألة العنصرية من حيث إنها مشكلة عالمية، فهي مشكلة اجتماعية بصفة أساسية، حددت فيها بعض العلاقات الجماعية الخاطئة التي عزلت بعضها عن بعض خواص عنصرية معينة من أهمها لون البشرة. فإذا ما تكونت من أية جماعة وحدة عنصرية معينة، وإذا ما اشتملت الجماعة على طبقة اجتماعية ما، ولاسيما إذا كانت في مرتبة دنيا أو فئة أضعف، فقد ينشأ التمييز في هذه الجماعة.»[12] فقضية لون البشرة هنا، تطرح مشكلا بين الأفراد في تمثلاتهم للجنس البشري ذي اللون الأسود، وعلى إثر ذلك، يبرز التمييز العنصري وينشأ التعصب، ويتم من خلال ذلك، ممارسة القوة والسلطة على الآخر المختلف في عرقه أو لون بشرته.

نجد في هذا الصدد، تلك الأفكار التي قدمها الباحث السوسيولوجي كرس شلنج أثناء الحديث عن مسألة التمييز العنصري بين البيض والسود، فقد اعتبر أنها توحي إلى تصنيفات متناقضة، إذ "يشي الأبيض والأسود بمعاني الطهارة والدنس، العذرية والخطيئة، الفضيلة والخسة، الجمال والقبح، الخير والشر، الله والشيطان."[13] وهذا ما يفسر بمعنى أو بآخر شرعنة هيمنة البيض القائمة. فوجود هذه الممارسات التمييزية يشرح على نحو أدق فكرة التعصب التي تظل عالقة في أذهان العديد من البشر، والذين يترجمونها إلى ممارسات عنيفة في العديد من الأحيان. ويبرز السوسيولوجي كرس شلنج كيف أن في أمريكا مثلا، وظف

11- أحمد (زايد)، مرجع سابق، ص 74

12- ر.د.ج. سيمونز، **لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية**، ترجمة علي عزت الأنصاري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2009، ص19

13- شلنج كرس، 2009، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر ونجيب الحصادي، الطبعة الأولى 2009، دار العين للنشر، ص 85

تحديد قيمة السود عبر أجسادهم في تبرير معاملتهم كسلع (أكثر من مليون أسود بين عامي 1820 و1860). أيضا شابت الخشية من جنسية السود العقوبات التي كانت تلحق بهم. يلي ذلك ممارسات اجتماعية أخرى عكست في مضمونها خوفا وفزعا من الجسد الأسود الذي كان ضحية لأفكار تعصبية مؤثرة ومضطهدة وعنيفة.

إن التمييز العنصري الذي انتشر في بعض المجتمعات كجنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، يشرح بكل وضوح الترابط الحاصل بين التمييز والتعصب، إذ إن الفرد المتعصب لا يقبل الطرف الآخر المختلف عنه دينيا وعرقيا وثقافيا، ولهذا فهو يلجأ إلى تبني موقف الإقصاء والنفور وبث الإحساس بالبغض والكراهية، والنظر إلى الآخر بأعين العداء والحقارة، مما يؤدي بذلك إلى بروز أشكال من الصراع والعنف. ولعل التاريخ في مختلف حقبه ومحطاته يشرح بنحو أدق هذا الترابط بين التمييز والتعصب الذي أدى إلى إراقة دماء كثيرة بقصدية هوجاء.

إذن، يمكن القول إن فعل التعصب يؤدي بشكل مطرد إلى بروز العنصرية. وهذا التمييز العنصري يعرف انتشارا ملفتا في بعض المجتمعات، وبالخصوص تلك التي تعرف حركة واسعة من الهجرة، حيث تتعدد الأعراق وتتنوع الثقافات، ما ينتج عن ذلك، تفشي بعض الممارسات العنصرية التعصبية، والتي تكشف النقاب عن جملة من المشاكل الاجتماعية والسياسية، وهذا ما يحصل في بعض البلدان الأوروبية، إذ يشتكي مواطنوها من زحف المهاجرين بأعداد كبيرة، مما يؤثر على تكافؤ الفرص وعدم الانسجام. ولقد أطلق فاليري إنجل على هذا الأمر، بما سماه بالعنصرية الحديثة، اذ يتساءل عن مدى الإقرار بشكل قاطع أن هناك دولا أوروبية تعترف علانية بالعنصرية الحديثة؟ ليجيب عن ذلك، معتبرا أن هذه الاتجاهات تبدو واضحة جلية في نفوسهم. وقد وضح ذلك عبر إعطاء بعض الأمثلة، كغلق "الأبواب في وجه اللاجئين، بحجة حماية هوية الأغلبية، كما فرض حظر على أداء العبادة بأية لغة غير اللغة الرسمية للدولة، كما هو الحال في إيطاليا، حيث حرم المهاجرون السابقون من الجنسية دون أي قرار من المحكمة..."[14] وينجم عن هذا، كما هو صريح، عن بروز ممارسات تعصبية إقصائية تجعل من إمكانية الحياة المشتركة عسيرة التحقق.

إذا كانت العنصرية في الماضي تقوم على التعصب لمبدأ العرق والأصل، فالعنصرية الحديثة اليوم، تستمد مبادئها من "تباين الثقافات"، وادعاء "الحفاظ على الهوية الثقافية الأصلية"، وهذا ما يمكن ملاحظته عبر العديد من الخطابات السياسية المتطرفة التي تدعو ضمنيا إلى الانغلاق على الثقافة المحلية للبلد،

14- فاليري إنجل، العنصرية الحديثة، ترجمة أحمد إسماعيل عبد الكريم، مجلة الثقافة العالمية، العدد 201، السنة 36، سبتمبر- أكتوبر 2019، ص 14

وإعلان التعصب لها وحمايتها من الآخرين الوافدين، مما يفضي في النهاية، إلى تأسيس ما يسمى بأحادية الثقافة Monoculturalism. وهذا ما قد يؤدي في الأخير على حد تعبير فاليري إنجل، إلى "ازدياد مخاطر الصراعات بين الاعراق والإثنيات زيادة كبيرة في البلدان التي تفرض بالقوة ثقافة الأغلبية على أقلية ما."[15]

رابعا - التعصب والصور النمطية

تعدّ الصور النمطية Les stéréotypes واحدة من الميكانيزمات المبسطة التي يستخدمها الأفراد للتفاعل مع العالم الاجتماعي (هذا العالم المعقد) لتجعله سهلا طبيعيا، لكن مفهوم الأفكار النمطية تعني أنها صور موجودة في أذهاننا، حيث أصبحت كمفاهيم أو براديغمات أو فئات من خلالها نضع أفرادا في تصنيف معين، وتصبح الفئة مصدرا للفكر النمطي، عندما يعتقد أفراد من ثقافة معينة أن هناك مفهوما أو فكرة تميز كل أفراد هذه الفئة أو الجماعة، كأن نقول مثلا: الصينيون يتميزون بقدرتهم على التصنيع والفرنسيون هم رومانسيون، فمن دون أن يتعرف الشخص على شخص آخر بمعرفة مسبقة، فإنه يؤسس في ذهنه تصورا مسبقا يصنف خلاله طبيعة هذا الشخص، ولاسيما على المستوى الظاهري، فالفرد يختصر الآخر في صورة محددة وخاصية وميزة معينة، ويتعامل معه على أنه هو كذلك. إذن إن الأفكار النمطية هي تلك الأحكام والصور الجاهزة والمتداولة المتعلقة بالآخرين، وبخاصة الأجانب أو بأنفسنا.

كل هذه التحديدات حسب الباحث أحمد زايد، تصب في دراسة قام بها كل من كاتس KATS وبرالي BARALY حول اتجاهات وتصورات طلاب جامعة برنستون نحو بعض الشعوب، فقد أجريت هذه الدراسة على عينة تابعت حياة طالب من طلاب برنستون، وطلب منهم تحديد السمات التي تناسب بعض الشعوب، ولا سيما الأمريكيين والصينيين والإنجليز، حيث أفرزت الدراسة النتائج التالية:

الألمان: علميون- مجدون.

اليهود: مرتزقة – مجدون.

الزنوج: كسالى - خرافيون - مرحون.

الإيطاليون: فنانون - مندفعون.

الإنجليز: أذكياء - تقليديون.

15- نفسه، ص 15

ما يتجلى من خلال هذه الدراسة، أن آراء هؤلاء الطلاب نابعة من صورة يشكلونها عن هذه الشعوب، وتأخذ شكلا مسبقا ذا تقييم سلبي أو إيجابي، كما أن آراء هؤلاء الطلاب «نابعة عن صورة نموذجية سائدة في المجتمع حول هذه الصور والآراء»[16]، التي يتم التعبير عنها حول هذه الشعوب.

يمكن القول إذن، إن التعصب مرتبط بالأفكار النمطية، وأنه موجود بوجود الأفكار النمطية نفسها، فالتعصب مصاحب لهذه الأفكار، والأفكار النمطية ماهي إلا تطبيق أوتوماتيكي للتعصب تجاه أعضاء الجماعة التي تخصها هذه الأفكار النمطية، وبصورة أخرى، إن هذا الترابط، هو نتيجة حتمية لعمليات التنميط، والتي هي بدورها تؤدي إلى المزيد من التعصب، حيث ترتبط العلاقة بينهما، ويغذي كل واحد منهما الآخر.

إن الواقع يثبت عدة أمثلة لترابط التعصب بالصور النمطية، وذلك من خلال أمثلة واقعية عديدة، فحينما يتم بث خبر إعلامي أو حدث معين في بلد ما، لينتشر ويعم باقي المجتمعات والثقافات الأخرى، كالحديث مثلا عن تعميم صورة العرب في مخيال الثقافات الغربية أو تمثل صورة الإنسان العربي لدى الثقافات الأورو أمريكية عبر المجال الإعلامي، حيث يقدم الإعلام العالمي في بعض مؤسساته، صورا نمطية عن الإنسان العربي، باعتباره شخصا متعصبا، أو «الشخص المكبوت» الذي يحكمه «الهاجس الجنسي»، وأنه يتسم بصفة «الغباء السلوكي»، ثم الوصول إلى درجة نعته «بالإرهابي» في أي حدث «إرهابي» يقع[17]، فكل هذه الصور النمطية تصبح متداولة لتمرر وتعمم بمنطق أحادي، وتصبح هذه الحالة، فكرة متداولة تسود العديد من المجتمعات في العالم، وهذا ما يقوم به الإعلام «المعولم» عبر تجليات ومظاهر متعددة.

بالرجوع إلى المجال السينمائي، وبالضبط إلى إنتاجات السينما الأمريكية، فأشكال الصور النمطية تحضر بشكل ملفت، وذلك على مستوى تصوير الآخر بأشكال ومظاهر مختلفة، إذ يبدو هذا الآخر متنوعا ومتعددا، كالآخر الأسيوي، الآخر العربي، الآخر ذو البشرة السوداء، الآخر الأوروبي...، إذ يمكن القول إن أشكال الحضور، ليست على نفس المنوال، ولا يتم التعامل معها بنفس الدرجة من حيث التقديم والتعبير عنها. فصورة الآخر العربي كما تمت الإشارة إليه في بعض الأفلام، لم يلق «عناية وتتبعا يفضيان إلى نظرة موضوعية تنتهي بحكم ينقل صورة حقيقية عنه. وتعتبر تيمة الإرهاب وما يتصل بها من أنماط صور،

16- وطفة علي أسعد والأحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 93

17- بهذا الصدد، يمكن الرجوع إلى بعض أفلام سينما هوليود في حقبة التسعينيات، وبعض الافلام في الحقبة الراهنة، إذ تم تصوير الجسد العربي بأشكال ومظاهر توحي إلى معاني قاصرة وصور نمطية إيديولوجية ذات قيم سلبية، وكل هذه الممارسات تخترق ذهن المتلقي من الجمهور الواسع، ليشكل في ذهنه صور وتمثلات تعصبية وأحكام مطلقة حول الآخر. ومن بين هذه الافلام نذكر: فيلم ليالي عربية Arabian Nights سنة 1942 وفيلم المومياء (1999 The Mummy) وفيلم هيدالجو...(Hidalgo 2004)

القالب الذي يقدم فيه العربي في الغالب...»[18] ومن هنا يمكن أن نلمس بجلاء، كيف أن التعصب يرتبط ارتباطا وثيقا بالصور النمطية، وبالخصوص في المجال السينمائي، باعتبار أن الحقبة الراهنة التي نعيشها اليوم، تتسم بوجود ما يمكن تسميته، بمجتمع الصورة والفرجة، فعبر الإعلام تمرر العديد من القيم السلبية، وعلى إثرها يطفو فعل التعصب ورفض الآخر وتشكيل صور نمطية سلبية عنه.

إذن، إن التعصب في هذا السياق، يتجه لبلورة أشكال وصور ثقافية لا تخلو من الأخطاء والمعاني القاصرة والصور النمطية والأحكام المسبقة، وهذا ما يفرز نوعا من القصور القيمي والثقافي الذي يشمل البنيات الذهنية للأفراد المتعصبين، مما ينتج في نهاية الأمر، ما يمكن تسميته بالتنافر الثقافي الذي تغيب فيه فكرة الحوار الحقيقي مع الآخر وتقبل اختلافه وتمايزه.

خامسا - خصائص ظاهرة التعصب

عندما يتحول التعصب إلى مرض اجتماعي، فإن الأمر يصبح خطرا، نظرا لكون أن هذا الأخير، يرتبط بالذات ارتباطا شديدا، حيث يصعب من خلاله القضاء والتغلب عليه، «فهو من أنواع النرجسية أو شق الذات؛ فمغالاة الأفراد في حبهم لأنفسهم أو إعجابهم بها وكل ما يماثلها أو يلوذ بها تجنح بهم من دروب مختلفة من كره ومقت الآخرين الذين يختلفون عنهم اختلافا بينا.»[19] وخصوصا من الناحية العرقية والدينية. وهذا ما برز فعلا، بالعودة إلى التاريخ، عبر العصور وبين حقب زمنية متعددة، إذ انتشرت أحداث باسم التعصب، والذي أودى بالعديد إلى الوقوع في متاهات عنيفة يملأها الرفض والإقصاء والصراع، بالإضافة إلى راهننا اليوم وما تسوده من وقائع وممارسات شنعاء ومدمرة.

إن الإقرار بوجود صراع ناجم عن التعصب والتمييز، يؤدي بالفرد المتعصب للوقوع في حالة من الصراع والعنف، ولا سيما حينما يتم الحديث عن نمط «التعصب الديني» أو المرتبط بالممارسة الدينية للأفراد، مثلما حصل في فرنسا وبعض المجتمعات الأوروبية سابقا، حيث تأجج فتيل الصراع واشتد بين الكاثوليك والبروتستانت حول مسألة الالتزام الديني المسيحي والتمثيل الحقيقي للدين، إذ إن كل مذهب كان يدعي الحقيقة الدينية المطلقة، ويدافع عن رؤيته الخاصة للدين، فكلا الطرفين لجأ بإلحاح، إلى نهج سلوكيات تعصبية شديدة ومتطرفة مورست بشكل همجي وعنيف، إذ اتسمت ممارساتهما بالازدراء والمقت والاضطهاد. وهنا تتمظهر خصائص الشخصية المتعصبة المتمثلة حسب حامد زهران في الوصول إلى استخدام العقاب الجسمي والتصفية والميل إلى صلابة الرأي والمحافظة، وبروز الحدود الفكرية وعدم

18- سليمان الحقيوي، الخطاب السينمائي، قضايا في التلقي والتأويل، سليكي إخوان للطباعة والنشر، طنجة، الطبعة الأولى فبراير 2019، ص 103

19- زايد أحمد، مرجع سابق، ص 88

المرونة والتزمت العقائدي والعدوان والتحدي والقوة والاهتمام الكبير بالأحقية الذاتية المطلقة. ويمكن القول بهذا الصدد، إنه «لا يمكن القضاء على فكر التطرف والتكفير وجذورهما، ما لم يتم القضاء على التعصب وزعم امتلاك الحقيقة»[20].

إن الفرد المتعصب هو من يتشبث بذاته وبالجماعة التي ينتمي إليها ويقبل قواعدها الراسخة، وهذا ما يمكن تسميته بمبدأ القبول، لكنه في نفس الآن، فرد ضد جماعة معينة أخرى، يؤسس من خلالها نظرة جديدة مبنية على العداء والكراهية والعنف، وهذا ما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بمبدأ الرفض على مستوى بنية التفكير.

وتبقى هذه النظرة القاصرة نتيجة عناصر متعددة شكلت مشاعر هذا الفرد المتعصب، وهي وجود تنافس للأفكار الدينية مثلا، الخوف من الغرباء، التشدد في القومية، وجود جماعة متنافسة في قوامها الدينية والمزايا والقوة والسياسة والفرص الاقتصادية التي أحيانا ما تساهم الشيء الكثير في تشكيل مشاعر التعصب، حيث يشعر الشخص المتعصب بالفراغ والإقصاء، الأمر الذي يؤدي به إلى اختيار بدائل جديدة تفضي في نهايتها إلى الإقصاء وممارسة العنف.

يصبح التعصب تعبيرا مبالغا فيه عن الانتماء للجماعة والتشبث بمبادئها، «فالانتماء الزائد إلى الجماعة التي ينتسب إليها المرء، والارتباط الذي يصل إلى حد الاستبعاد التام للآخرين أو كراهيتهم أو التعالي عليهم»[21]، يجعل الفرد المتعصب حبيس بنية تفكير مغلقة ومتصلبة ترفض إمكانية الحوار والتوافق أو التصويب والإصلاح. وهذا ما يمكن ملامسته مثلا عبر أشكال التفرقة بين البشر وامتداداتها الطويلة التي أدت إلى رسوخ المد العنصري «الذي أجبر الكثير من الزنوج وأصحاب البشرة السوداء على الانزواء وفق هذه السلطات القامعة لهم»[22]. وفي نفس السياق، يؤكد الباحث أحمد زايد أنه ليس هناك جماعات أقلية هي التي تتعرض للاضطهاد والتعصب، فهناك على حد قوله: حالات قليلة يكشف عنها التحليل الجدلي تخرج على النمط المألوف؛ بمعنى أن هناك حالات يبدأ فيها التعصب من جانب الأقلية وليس العكس، حيث إن الأغلبية تبقى في موقف دفاعي ضدها مانعة لتسربات هذه الأقلية التي تفرض قوتها، وهذا ما يلاحظ حقا في أن الأقلية اليهودية تعد «مثالا لهذا اللون الفريد من تعصب الأقلية ضد الأغلبية، وهي تسعى دائما إلى

20- نور الدين عزار، التطرف بين الديني والفكري، مقال منشور، في موقع منظمة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، تاريخ 19 أغسطس 2019

21- زكريا فؤاد، 1993، التعصب من زاوية جدلية، مقال ضمن كتاب أضواء على التعصب لمجموعة من المؤلفين، الطبعة الأولى 1993، دار أمواج للطباعة والنشر، ص 159

22- مازن مرسول محمد، 2015، حفريات في الجسد المقموع، مقاربة سوسيولوجية ثقافية، الطبعة الأولى 1436- 2015، بيروت، الجزائر، الرباط منشورات الاختلاف ومنشورات ضفاف، دار الامان، ص 140

ممارسة مختلف أنواع الاستفزاز مع العرب.»[23] وهذا ما يطلق عليه الباحث أحمد زايد بوجود وسيلة لا شعورية مصطنعة للتغلب على الخوف والتهديد الداخلي، فعوض أن تكون هذه الفئة في موضع اعتداء من الغير، تصبح هي المعتدية مع ميلها لاختلاق أسباب غير الحقيقية لتبرير ما تقوم به من عدوان تجاه الغير.

من بين خصائص التعصب هي التي تناولها الباحث مصطفى زيور أثناء تحليله لسيكولوجية التعصب، حيث وصل إلى نقاط هامة جدا هي كالتالي:

- التعصب رد فعل، حيث يكون الفعل هو التخلي عن الأنانية.

- التعصب هو نقل عدوانية الأفراد نتيجة التخلي عن الأنانية إلى خارجهم.

- التعصب دفاع نفسي ضد رغبة في الأنانية اضطر الفرد كبتها.

- التعصب يعيد للفرد أنانيته بشكل آخر، حيث يؤدي إلى طرح كل ما يكمن في ذاته على ما يتعصب ضده، ليبقى لنفسه ولرفاقه كل ما يرضاه عن ذاته، بل وكل ما يمكن أن يجده طيبا في من يتعصب ضده. بهذا المعنى، يصبح الشخص المتعصب ممتلكا «لنرجسية توهمه بأنه الوحيد على حق دائما، والقدرة الكلية لفكرته يتوصل بها إلى تغيير العالم سحريا واجتلاب الفردوس، والإسقاط يُريحه من شبهات الضعف والقصور البشري.[24]»

إن التعصب هو من مظاهر استغلال الإنسان للإنسان، حيث ينجم عن ذلك بروز التشاحن والصراع، ويجعل فعل التعصب الفرد المتعصب «ينظر إلى ضحاياه على أنهم أقل في المكانة وحتى في القدرات العقلية، وأن لهم من الصفات غير المستحبة والمنفردة الكثيرة، وينظر إليهم نظرة عداء أينما وحينما كانوا، كما أن الشخص المتعصب قد يشعر بتعصب أنه يتعارض مع مبادئه العامة، مثل اعتقاده في المساواة بين البشر وإيمانه بالعدالة والحرية.»[25] بالإضافة إلى أن الفرد المتعصب يقوم بممارسات لا أخلاقية أو مضادة للمبادئ العامة للمجتمع، فهو يخرج عن نطاق الجماعة ويصبح منبوذا فكريا واجتماعيا، لا يقبله أحد ولا يستجيب له. لكن الأمر الذي يثير الاهتمام، هو أن ينتشر هذا المرض بين أفراد المجتمع ويتأصل في ذهنياتهم، حينئذ يصعب ويتعسر مقاومته.

23- زايد أحمد، مرجع سابق، ص 89

24- هاينال أندريه وآخرون، 1990، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى 1990، دار الساقي، ص 18

25- زهران حامد عبد السلام، 2003، علم النفس الاجتماعي، ، الطبعة السادسة، 2003، عالم الكتب ص 222

سادسا - التعصب وبروز العنف

توجد علاقة سببية بين التعصب وممارسة العنف، فالفرد المتعصب عادة ما يلجأ إلى تبني بعض القيم السلبية التي تتحول مع مرور الوقت إلى ممارسات عنيفة ظاهرية. والواقع يثبت ذلك، عبر العديد من الأحداث والوقائع العنيفة، إذ يلحظ انتشار ظواهر اجتماعية كثيرة ذات التوجه العنيف، إذ يقدم الفرد على ممارسة الأذى على شخص آخر، بمنطق وذهنية إقصائية ترفض وتنبذ الآخر المختلف، سواء في العرق أو الدين أو الانتماء، ومن بين هذه الظواهر السائدة، هي العنصرية، الشغب، الفوضى، القتل...يلي ذلك أيضا، شكل العنف المستشري في الاعلام، "إذ لم يعد العنف منفصلا عن وسائل الاعلام التي تنشره وتستعمله كما تشاء أو تصمت عنه...فالعنف أصبح قابلا للحساب والتحكم، فأنه يمكن أن يحقق مردودية، حيث أصبح من الممكن فرض السيطرة بواسطة التعذيب والقمع والتهديد به."[26]

ويمكن ربط هذه الممارسات العنيفة، ببعض العوامل النفسية والاجتماعية التي تحضر أثناء ممارسة العنف من طرف بعض المتعصبين، إذ إن شعورهم تجاه أنفسهم يكون سيئا وقاصرا، يعني هذا، أن لديهم مستوى منخفضا من تقدير الذات، وتراجعا مستمرا للقيم الأخلاقية والانسانية، ووجود رؤية منغلقة للعالم. وقد اعتبر المفكر روجي دادون، أن السمة التي يمكن ربطها بالإنسان على غرار كونه كائنا صانعا وعاقل وسياسي، هي سمة العنف، "فالإنسان العنيف (Homo Violens) كما نقدمه ونحلله اليوم، هو ذلك الكائن الانساني الذي يتحدد بأنه منبن داخليا وعضويا بالعنف."[27]

إن الفرد المتعصب الذي ينتج سلوكا عنيفا، يتشبث بقناعة ذاتية راسخة لا تتزعزع، في كونه شخص صالح تماما، وأن معتقداته صائبة، وأن من حقه السوي أن يفعل ما يفعله، دون التفكير في مآل هذا الفعل والتبعات التي تعقبه، إنه بهذا المعنى، رفض وإلغاء لكل ما لا يوافق الذات واختياراتها. وقبول ضمني للمعتقدات الشخصية العالقة لا شعوريا، ولهذا يقوم العنصريون بأفعال عنصرية؛ لأنهم واثقون من تفوق عرقهم. ويقبل المتطرفون على تفجير أنفسهم، وقتل مئات الأشخاص لأنهم على قناعة ذاتية أنهم شهداء، وأنهم يطبقون التعاليم الصحيحة التي ستدخلهم الجنة. ويقدم البعض الآخر على اغتصاب الأطفال والنساء لاعتقادهم بأن لهم الحق في جسدهم.

إن التعصب يؤدي بممارسيه إلى تبني سلوك عنيف في العديد من الأحيان، ولعل الواقع يثبت ذلك عبر مظاهر وتجليات عديدة، إذ يلحظ على نحو جلي إقدام شخص متعصب دينيا للقتل وسفك دماء الآخرين بكل

26- إيف ميشو، العنف، عن تساؤلات الفكر المعاصر (لمجموعة من المؤلفين)، دار الأمان، الرباط، 1990، ص 77-75

27- Roger Dadoun, La violence, Hatier, paris, 1993, pp 5

جرأة وقوة دون مراعاة القيم الانسانية المشتركة أو احترام حق الاختلاف، وبهذا الصدد، يمكن الاستشهاد بالواقعة الدامية التي حصلت في العام الماضي، حينما قام متعصب استرالي بقتل خمسين متدين منهم رجال ونساء في مسجد كرايستشرس في نيوزيلاندا. وتجدر الإشارة إلى كون أن هذا المتعصب مطلق النار، من المناديين بتفوق العرق الأبيض. ووجهت له 50 تهمة بالقتل و39 تهمة بمحاولة القتل. وهذا ما يفسر ما تم الانطلاق منه في البداية، هو كون الفرد المتعصب يميل إلى القبول والتشبث بقناعة مغلقة تقصي الآخرين ولا تؤمن بثقافة الاختلاف واحترام التعدد الديني والعرقي وحق المعتقد.

بهذا المعنى، يتحول المتعصب إلى فرد عنيف، يتصف بالعنف وممارسة القوة والقهر وإقصاء كل ما لا يوافق معتقداته وميولاته وثقافته أو دينه. ويعتقد العديد من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي أن العوامل المؤدية لهذا العنف لا يمكن حصرها، فهي متعددة كوجود ذكريات مؤلمة لدى الفرد المتعصب ومعاناة في الماضي والقلق والأمراض النفسية، كالهيستريا والكآبة وانفصام الشخصية. وقد يرتبط ممارسة العنف لدى الفرد المتعصب بفشل القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية في تحقيق التوازن النفسي والاجتماعي للفرد. وهذا ما قد يقود المتعصبين إلى تبني سلوكيات منحرفة وممارسات واعتداءات عنيفة.

بالعودة إلى الأحداث التاريخية الماضية، فقد انتشرت ظواهر عديدة باسم العنف والتعصب، جعلت الوضع البشري مليئا بالفوضى والصراع وانتشار قيم الشر والرذيلة. فالعنف اتخذ أساليب وتمظهرات مختلفة كصراع بين فرد وآخر، وبين فرد وجماعة وبين طبقة وأخرى، وبين الحكومات والدول أيضا. ويقر المفكر المغربي محمد سبيلا، أن العنف الذي يرتبط بالدولة مثلا يعد قوة تمتلكها، ورغم مشروعيته إلا أنه قد يولد «شطط وانفلات وتجاوزات وانتهاك للمعايير الضابطة لوظائف وحدود السلطة نفسها.»[28] لقد أبرز المؤرخ العربي ابن خلدون أن مسألة العنف هي من صفات البشر، وأن الجهل بطبائع الأشياء وتجاهلها ورفضها يقود البعض إلى التعصب وممارسة العنف والقوة. فالعنف على حد تعبيره، ما زال منتشرا في المجتمعات البشرية التي ترفض التشبث بالقيم العقلانية والإنسانية النبيلة، وتختار العنف كوسيلة للهيمنة وانتزاع حقوقها وتسوية أشكال نزاعاتها. وسبب اندلاع أحداث العنف حسب المؤرخ ابن خلدون كما يورد ذلك في كتاب المقدمة، هو العصبية، وهي الاستعداد الفطري والنفسي الذي يدفع الفرد إلى نصرة أقربائه بالدم والدفاع عنه مهما كانت الظروف والعواقب والنتائج.

إن الفرد المتعصب والعنيف يستند في ممارساته إلى تمثلات تؤطر سلوكياته واتجاهاته. «والحال أن التنشئة الاجتماعية والتربية والبيئة والتراث الثقافي وكذلك العلاقات السياسية-الاجتماعية تلعب دورا مهما

28- محمد سبيلا، العنف بين الدولة والمجتمع، مجلة المستقبل العربي، فبراير 2007، بيروت لبنان، ص 120

في جعل بعض الأفراد أكثر ميلا إلى استخدام العنف، ولكن بأشكال ودرجات متباينة.»[29] فالعنف بتعبير فرانسوا لوجاندو يبقى ظاهرة تمس قبل كل شيء الفرد والفرد المهدد.

وبالفعل، إن الرهان على مسألة الثقافة، باعتبارها ذلك المركب الذي يحوي القيم والمعايير والأخلاق والمعرفة والعلم والفن وأنماط العيش والسلوك والتبادل واللغة، هي وسيلة ناجعة لحث الأفراد على تجنب العنف أو ممارسته. فالمؤسسات الثقافية والدينية والاجتماعية يمكن أن تتدخل دوما للحد من استخدام العنف ومنع المنتسبين للجماعات العنيفة من ممارسة الشر. ولهذا، فالمسؤولية تسند لهذه المؤسسات الثقافية الواعدة التي من الممكن أن تغير من أوضاع الأفراد، وحثهم على تداول القيم النبيلة والإيمان بثقافة الاختلاف وتقبل الآخر مهما كان عرقه أو دينه أو انتماؤه.

هناك ترابط ضمني بين التعصب والعنف الرمزي، الذي يمارس على نحو غير مباشر ولا واعي، وبالأحرى بطريقة خفية وصامتة، وهو «ذلك الشكل من العنف الذي يمارس على فاعل اجتماعي ما بموافقته وتواطئه»[30]، ويكون مفعوله أعمق. ويرى السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو أن الخطاب الديني المتطرف كشكل من أشكال العنف الرمزي، «هو خطاب رمزي يؤول النصوص الدينية ويشوهها عبر خطاب عاطفي لا عقلاني. فهو يمتلك سلطة رمزية تكتسب شرعيتها من مقولاتها الخاصة ومن منطقها الداخلي ومن مفاهيمها الذاتية.»[31] فالفرد المتعصب يكون ضحية أفكار إيديولوجية دينية قام باستشرابها بطرق رمزية خفية، جعلته يتجه بسلوكه إلى ممارسة العنف والتشبث بمبدأ الاقصاء، ولعل الواقع المعيش يثبت ذلك بأوجه عدة. ويمكن القول إن ارتباط العنف بالتعصب يصبح كالوباء المعدي الذي ينتقل ويستشري في كل الجسد الاجتماعي، إذ نجد حنا أرندت بهذا الصدد تؤكد نفس الفكرة، «فماذا الذي، يا ترى، شكك في أن الذي تعرض للعنف يحلم بالعنف، وأن المضطهد إنما يحلم بأن يجلس ولو ليوم واحد مكان الذي اضطهده...»[32]

إن التعصب في علاقته بالعنف حسب الباحث إبراهيم الحيدري، بأشكاله وأساليبه هو من أخطر الظواهر الاجتماعية السلبية التي تسود العالم شرقا وغربا، وهو ينشأ بفعل غياب الوعي الاجتماعي والعقلاني والحرية والعدالة وحقوق الإنسان. وأمام استفحال هذا الوضع، وتأزم العالم وما نشهده من تراجع للقيم على كل الأصعدة، يكون من الحري العودة إلى ثقافة اللاعنف ونشر قيم السلم والأمان والتعاون.

29- الحيدري إبراهيم، 2015، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، الطبعة الاولى 2015، بيروت، دار الساقي، ص91

30- Pierre Bourdieu, Réponses, seuil, 1992, pp 141-143

31- الحيدري إبراهيم، مرجع مذكور، ص 117

32- حنا أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، بيروت، دار الساقي، 1992، ص 21

إن الفرد المتعصب يعبر عن ميله إلى الإقصاء عبر العديد من الممارسات؛ لأنه يتشبث بيقين كلي وقناعة راسخة متصلبة، وهذا اليقين المعلن يؤدي إلى العنف؛ «ذلك لأن العنف الإيديولوجي ليس سوى عنف باسم يقين مطلق، وباسم وعد مستقبلي يقيني. واليقين ينتج العنف الفكري.»[33] وهذا ما أبرزه المفكر سعيد ناشيد حينما اعتبر أن التعصب والانزواء للفكر الأحادي يؤدي إلى العنف والرفض والإقصاء. إن الفرد المتعصب يعتنق أفكارا وهمية لا تعبر عن واقعية الحياة ولا تتطابق مع المنطق وإعمال العقل السليم الذي يتحرى الحقيقة ويتجنب الأحكام والأفعال المنغلقة. فهل يمكن أن نسمي هذه الانغلاقية في التفكير ب «أصنام» عالقة على مستوى البنية الذهنية للمتعصب؟

إن الأصنام المقصودة هنا، في سياق الحديث عن فعل التعصب هي «شيوع بعض الأوهام والأساطير والفِكَر المغلوطة التي لا تخضع للبحث العلمي والمنطق، يتعصّب لها الإنسان ويتحيّز، فتؤثّر في كلّ وجوه حياته الفكرية، فتقيّد عقله وتحدّده، وتقرّر علائقه وصلاته مع النّاس كمّاً وكيفاً، وتعمل على تقويتها واستمرارها حيناً، وعلى تقليصها وقطعها وبترها ورتقها حينا آخر»[34]. إذن، إن هذه الأصنام كتعبير مجازي عن وضعية الإنسان المتعصب هي أفكار يصنعها بنفسه ليجابه بها مخاوفه وهواجسه، لكنها ستكتسي لاحقا حمولة عدوانية، حينما يتفاعل بها مع الأغيار المختلفين عنه فكريا وثقافيا ودينيا.

إن سيكولوجية الفرد المتعصب على حد تعبير المحلل النفسي سيغموند فرويد، لا تخرج عن ثلاثة مؤشرات: «النّرجسية، الكلية، والإسقاط أو الإضفاء. فالشّخص المتعصِّب مصابٌ بعقدة شهوانية الأنا (النرجسية). فهو الوحيد الذي يكون دوماً على حق، وبفضل إيمانه بالقدرة الكلّية لفكرته، سيتوصّل إلى تغيير العالم سحريا، وإلى اجتلاب الفردوس. كما أنّ لديه فكرة إسقاطية تريحه من كلّ شبهات الضعف والقصور البشري».[35] وهذا ما يبين على وجه الدقة، الاتجاه الذي يسلكه المتعصب، حينما لا يريد أن يقبل بفكرة الاختلاف وتشبته المطلق بمعتقداته ومبادئه وإقصائه لأشكال الوجود الأخرى. وقد يصل الأمر إلى درجة ربط العنف بالمقدس، «فالجماعة مستعدة دوما للعنف من أجل الدفاع عن حقيقتها المقدسة. الإنسان بحاجة إلى عنف وتقديس، وإلى حقيقة لكي يعيش ولكي يجد له معنى على الأرض.»[36]

ومن زاوية استشرافية، يمكن القول إنه مع التطور الذي يعرفه الإنسان، أصبحت كل الأحداث والوقائع والمشكلات قابلة للدراسة والفهم واقتراح الحلول والبدائل، فمن أجل مقاومة ظاهرة التعصب، فقد تأسست

33- ناشيد سعيد، 2018، التداوي بالفلسفة، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ص 87

34- الطاهر، عبد الجليل. 2016، أصنام المجتمع بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي، الطبعة الاولى، 2016. بيروت. مكتبة التنوير، ص 12

35- هاينال أندريه وآخرون، مرجع مذكور. ص 18

36- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صلاح، دار الطليعة، بيروت، 1998، ص 235

منظمات وجمعيات المجتمع المدني ومراكز أبحاث ومؤسسات تدعو إلى مناهضة هذا المرض الاجتماعي والتخفيف منه، وزيادة الأدوات الإيجابية المثيلة، والتغلب عليه، عبر بث روح التسامح والتعايش بين الأفراد والجماعات وخلق تنمية اجتماعية مبنية على الانسجام والترابط الاجتماعي.

سابعا - في مواجهة التعصب

يمكن طرح سؤال أساسي هو: هل يمكن السيطرة على التعصب؟ وإلى أي حد يمكن للإرادة البشرية أن تضع حدا لهذه الممارسة الهدامة؟

إن محاولة التغلب أو مناهضة التعصب لمهمة صعبة، إذ إن الإيمان المطلق بالأفكار التي يتشبث بها الفرد المتعصب، يجعل فعل المقاومة صعب ومعقد التحليل والمعالجة، فحتى أثناء مقابلة الفرد المتعصب وحثه على تغيير أفكاره وتوضيح له حقيقة معتقداته، فإنه قد يواجهك بالنبذ والرفض وعدم الرضا، وقد يجعل منك طرفا للصراع، فهو يشعر بأن كل الأفراد حوله يكتسون وجه البغيضة والخطأ، وهم لا يعرفون الصواب والحقيقة، وأن ما يعرفونه عن الحياة، هو أمر سخيف لا يقبله العقل، ففي هذه الحالة العسيرة قد تصعب عملية المقاومة والتغلب على هذا المرض، لكن وباعتبار أن التعصب ظاهرة بشرية خالصة تنتمي إلى مجال العلاقات بين الجماعات حسب الباحث أحمد زايد، فإن بمقدرة الإنسان أن يجتهد ويعمل على معالجة هذه الظاهرة بطرائق وأساليب متعددة، مثل التواصل المباشر بين الجماعات، وبناء البرامج التربوية الهادفة، وإجراء علاجات نفسية تخفف من حدة هذا المرض الاجتماعي.

إن التواصل المباشر بين الجماعات يمثل أحد الجوانب المهمة التي تسعى إلى المواجهة والقضاء على التعصب أو محاولة تقليله أو خفضه أو الوقاية منه؛ فبوجود هذا الاتصال بين الجماعات، فإنه «يسهم في تخفيف حدة الأفكار النمطية والاعتقادات الخاطئة، والعمل على تغييرها، كما أن التقارب والتفاعل يزيدان من المحبة والمودة»[37]، فالتواصل المبني على تبادل الخبرات والمميزات بين الجماعات قد يؤدي بها إلى العيش في ظل عالم من الانسجام والتعايش، فبتالي قد يتقلص حجم الصراع وتسير كل جماعة على نحو مسترسل في تحقيق التطور والتقدم بدون صراعات.

لقد أكد عدد كبير من الباحثين، ومنهم الباحث مايلز هبستون إلى أن فرض التواصل يعد واحدا من أكثر الأفكار المؤثرة بشأن خفض التعصب بين الجماعات؛ فمن أجل أن يقوم هذا الغرض (التواصل)، يجب أن ينطلق من تطبيق شروط خاصة ومهمة، وهي كالتالي:

37- زايد أحمد، مرجع سابق، ص 122

ـ يجب أن يحصل الاتصال بين جماعات متساوية اجتماعيا واقتصاديا، أو أن يحصل بين جماعات لها أهداف مشتركة تسعى إلى تحقيقها.

ـ يجب أن يشتمل الاتصال على تعاون واعتماد متبادل بين الجماعات فيما بينها؛ وذلك من أجل تحقيق أهداف مشتركة.

ـ يجب أن يتحقق الاتصال بين الجماعات بشكل غير رسمي، فبقدر الإمكان يسعى كل شخص إلى معرفة الآخر، وهذا التعارف الذي يحدث تلقائيا بين الأفراد عنصر أساسي في الاتصال.

ـ يجب أن يحدث الاتصال في المناطق التي توجد فيها معايير تفضل مساواة الجماعة، وتعمل على زيادة روابط بين أفراد كل فئة فيها.

ـ يجب أن يحدث الاتصال بين الجماعات على عدم تصديق المعتقدات النمطية السلبية ـ كل منهم تجاه الآخر ـ وتجاهل كل ما يهين كلتا الجماعتين.

وفي كتابه الحديث الترجمة (في مواجهة التعصب) يبرز الباحث الأمريكي ريتشارد سينيت دور التعاون من أجل الحفاظ على البقاء مع بناء مهارة الإصغاء الصادق أثناء تجربة التواصل؛ فالتعاون بتعبير هذا الباحث «موجود في جيناتنا، لكنه لا يستطيع البقاء محشوراً في سلوك روتيني، بل يلزمه تطوير وتعميق ضروريان، وهذا أمر يكتسب أهمية خاصة عندما نتعامل مع بشر لا يشبهوننا، وحيث يكون التعاون جهدا متطلباً.»[38] وبالفعل، إن لقيمة التعاون دورا أساسيا في الحفاظ على البقاء، والحفاظ على الوضع الآمن والدفاع عن القيم الإنسانية التي أصبحت تتلاشى أمام وجود منطق الجشع والقوة والصراع والاستغلال والإقصاء.

تلعب البرامج التربوية أدوارا مهمة في وضع حد للتعصب أثناء ذيوعه وتسربه إلى بنيات المجتمع؛ فعبر التعليم يمكن بث وتداول القيم الإنسانية والجمالية، وبيان التعايش بين الشعوب القائم على أساس التسامح والاحترام. وهذا ما أكد عليه الباحث حامد زهران، حينما اعتبر أن من مهام وأدوار العلوم الإنسانية هو أن تنشر المعلومات المتوافرة الصحيحة وإعطاء البيانات الموضوعية عن الأفراد والجماعات مع القيام بزيارات منظمة، وتقديم قراءات مختارة تبرز واقع كل جماعة معينة.

38- حواس محمود، 2017، عرض كتاب: في مواجهة التعصب، تأليف ريتشارد سينيت، مجلة العربي، العدد 709، 2017، ص 167

ومن الطرائق المتبعة لتخفيف ومقاومة التعصب هو «تشجيع الاختلاط والاتصال الفعلي بين الجماعات، وإتاحة الفرصة أمام الناس من عناصر وأجناس مختلفة للتفاعل والعيش معها، ودعوة الأفراد والجماعات لاختيار أفكارهم في الواقع وفي إطار موضوعي، حيث تكون ظروف المعايشة والمخالطة تدعو إلى التعاون المتبادل.»[39] فمن أجل نجاح تأثير الاختلاط والاتصال الفعلي في مقاومة التعصب على حد تعبير الباحث حامد زهران، ينبغي أن تكون شخصيات الأفراد واتجاهاتهم قابلة للتغيير، وأن تكون مواقف الاختلاط والاتصال مشجعة، حتى لا يحدث عكس المطلوب، بالإضافة إلى إظهار عيوب التعصب وأضراره النفسية وأسباب نموه بالنسبة إلى الأفراد المتعصبين أنفسهم، ومقابلتهم قصد علاجهم نفسيا وحثهم على القيم الإيجابية والتزود بالمعلومات والمعرفة الكافية والحقيقية، حتى لا يتعرضوا لأي تعصب ما.

إن الدفاع عن قيمة التسامح ونشرها، هو من أنجع السبل لمواجهة التعصب، إنه بمعنى آخر «انسجام داخل الاختلاف، ويتجلى ذلك في تقبل مظاهر الاختلاف والتنوع والثراء في الثقافات البشرية التي يزخر بها عالمنا، وفي احترام وتقدير جميع الأشكال والأساليب التي يتم بواسطتها التعبير عن خصائص الوجود البشري. وتعد المعرفة والتواصل والانفتاح الفكري وحرية التفكير والاعتقاد من العوامل المساعدة على نموه. إن التسامح ليس إلزاما أخلاقيا فقط، وفضيلة مثلى غايتها إحلال ثقافة السلام مكان ثقافة الحرب... لا يجب أن ننظر إلى التسامح على أنه منة وتنازل أو مجاملة، إنه قبل كل شيء موقف إيجابي يتلخص في الاعتراف بحريات الآخرين الأساسية، وبأنه لا حق لأي إنسان في فرض آرائه على غيره.»[40]

إن إمكانية تغيير الأوضاع، والقضاء على ظاهرة التعصب والعنف، لهي مسؤولية عسيرة، أمام انتشار تعقيدات وعوائق وحواجز اجتماعية وسياسية مركبة، تستدعي جهدا كبيرا، وتوسيع مساحة النظر وتجديد التخطيط والتنظيم السياسي والاجتماعي، ومع ذلك، بتعبير إدغار موران، «في خضم هذه الأزمة، ينبغي التمسك بالأمل بنمط جديد من المجتمعات، المجتمعات العالمية... مجتمع ما يتصرف باقتصاد منظم بشدة من خلال القوانين والقواعد.»[41]

39- زهران، حامد عبد السلام مرجع سابق، ص 223

40- منشورات اليونيسكو، باريس، 16 نوفمبر 1995، ص 10

41- جان بودريار، ادغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الاولى 2005، ص ص 78-79

استنتاج

يمكن القول إذن، إن التعصب يصبح كمشكلة اجتماعية قائمة بذاتها، تؤثر على حياة أفراد المجتمع كلية؛ فالتعصب يكتسي طابعا «سلبيا» ولا أخلاقيا في ممارسات الفرد، دون أن يعي حقيقته وماهيته، فقد ينبذ الفرد المتعصب أفكار ومعتقدات الغير، حتى وإن كانت تحمل وجه الصواب والحقيقة، وهذا ما يفسر بكل وضوح، وجود ما يمكن تسميته بالتصلب الفكري على مستوى البنيات الذهنية للمتعصبين من حيث إنهم يعيشون في صراع نفسي وعقلي وفي متاهة لا يعرفون نهايتها.

ومن هنا، فإن محاولة التغلب على ظاهرة التعصب والحد من شيوعها في الجسد الاجتماعي قد تتخذ شكلا مركبا طويل المدى، إذ إن الوقوف على الوسائل والإمكانات التربوية والإعلامية والثقافية منذ نشأة الفرد، هي مدخل أساسي قد يلعب دورا مهما في تجنب ووقاية الأفراد من ممارسة أشكال التعصب، وهذا ما يفضي في نهاية المطاف إلى بناء هوية فردية وجماعية تستند على التفكير العقلاني المنفتح، وتحقيق نزعة إنسانية مبنية على التسامح والتعايش والحوار والتنوع.

قائمة المصادر والمراجع:

- إيف ميشو، العنف، عن تساؤلات الفكر المعاصر (لمجموعة من المؤلفين)، دار الأمان، الرباط، 1990
- بدوي أحمد زكي، 1978، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان.
- جان بودريار، ادغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى 2005
- حنا أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، بيروت، دار الساقي، 1992
- حواس محمود، 2017، عرض كتاب: في مواجهة التعصب، تأليف ريتشارد سينيت، مجلة العربي، العدد 709، 2017
- الحيدري إبراهيم، 2015، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، الطبعة الأولى 2015. دار الساقي
- ر.د.ج. سيمونز، 2009، لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية، ترجمة علي عزت الأنصاري، القاهرة، المركز القومي للترجمة.
- زايد أحمد، 2006، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، طبعة أبريل 2006، الكويت، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- زهران حامد عبد السلام، 2003، علم النفس الاجتماعي، منشورات عالم الكتب، الطبعة السادسة، 2003، 1424.
- سلامة عبد الحافظ، 2007، علم النفس الاجتماعي، الطبعة العربية 2007. دار البازروري العلمية للنشر والتوزيع.
- سليمان الحقيوي، الخطاب السينمائي، قضايا في التلقي والتأويل، سليكي إخوان للطباعة والنشر، طنجة، الطبعة الأولى فبراير 2019
- شلنج كرس، 2009، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر ونجيب الحصادي، الطبعة الأولى 1430-2009، القاهرة، دار العين للنشر.
- صن أمارتيا، 2008، الهوية والعنف، الكويت، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- الطاهر، عبد الجليل. 2016، أصنام المجتمع بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي. الطبعة الأولى 2016. بيروت. مكتبة التنوير.
- فاليري إنجل، العنصرية الحديثة، ترجمة أحمد إسماعيل عبد الكريم، مجلة الثقافة العالمية، العدد 201، السنة 36، سبتمبر- أكتوبر 2019
- الكريم الجباعي جاد، التعصب وآليات توليد العنف، مقاربة فكرية، دراسات اجتماعية، مداد، مركز دمشق للأبحاث والدراسات.
- مازن مرسول محمد، 2015، حفريات في الجسد المقموع، مقاربة سوسيولوجية ثقافية، الطبعة الأولى 1436 - 2015، بيروت، الجزائر، الرباط منشورات الاختلاف ومنشورات ضفاف، دار الأمان.
- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صلاح، دار الطليعة، بيروت، 1998
- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صلاح، دار الطليعة، بيروت، 1998
- محمد سبيلا، العنف بين الدولة والمجتمع، مجلة المستقبل العربي، بيروت لبنان، فبراير 2007

- منشورات اليونيسكو، باريس، 16 نوفمبر 1995
- نور الدين عزار، التطرف بين الديني والفكري، مقال منشور، في موقع منظمة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، تاريخ 19 أغسطس 2019
- هاينال أندريه وآخرون، 1990، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل. الطبعة الأولى، دار الساقي.
- وطفة علي أسعد والأحمد عبد الرحمن، 2002، التعصب ماهية وانتشارا في الوطن العربي، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، 3 يناير مارس، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- Bronner Gérald, 2001 Fanatisme, Croyances axiologiques extrêmes et rationalité, L'année Sociologique, 20011/(vol 51). P.138160- DOI 10.3917/anso.011.0137
- Pierre Bourdieu, Réponses, seuil, 1992
- Roger Dadoun, La violence, Hatier, paris, 1993
- Weber max, 1990, Le Savant et Le Politique, Paris, Plon, 1990

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021